الجامعات : معاهد للدرس أم للبحث ؟

تلخيص رأي الكاتب الاميركي المعروف « الفرد نورث هوايتهد »

لاسماعيل مظهر

نظام الجامعات يكاد يكون نظاماً غربيًّا بحتاً ، اخذ الشرق ينتحله منذ زمان غير بعيد. واذا قضينا بأن نظام الجامعات غربي ، فليس من قصدنا ان نقضي بأن الشرق قد تجرد من فكرة اقامة البحث والدرس العلمي والادبي والفلسفي على معاهد تربي عقول النشء الحديث في امة من الامم . كذلك لست اريد ان اقول إنّ الشرق قد تجرد من المذاهب المدرسية التي قامت بين جدران معاهد خلال ازمان مديدة . بل أريد ان اقضي بأن فكرة « الجامعة » باعتبارها فكرة « حرة » احدثت نظاماً جديداً من الدرس وأسلوباً حديثاً في البحث الحرّ ، هي من مخترعات العصر الحديث

انحصرت المعرفة في العصور القديمة في التاريخ بين جدران المعابد والهياكل حيث تفرد الكهان ورؤساء الدين بالعلم دون بقية الناس ، وحرصوا على ان يكون العلم وقفاً عليهم ، فظلّ قاصراً على فئة من الفئات لم يتعدّاها . ولقد استنشق العلم شيئاً من ريح الحرية في المدنية اليونانية حيث قامت الأكاديميات من حول فلاسفة عظام كسقراط وأفلاطون وأرسطو ، فلم يفرقوا بين الناس في تلقي العلم ، بل اوصوا في افق الدرس العلمي والفلسفي في حين ان ارسطو رغماً عن هذا قد اوصى بأن تكون الفلسفة العليا وقفاً على الخاصة ، وان العامة يكفي فيهم ان يكونوا ملمين ببعض مبادىء المعرفة الماماً اوليًّا

فلما انتشر الدين المسيحي انتصرت المدارس على المعاهد التي اقامها آباء الكنيسة وانتصر العلم فيها على ما سمّي حين ذاك « بالعلم السلمي » المحصور في التفاسير التي فسرت بها الكتب المقدسة ، وفي المبادىء الفرامنطيقية واللغوية التي ساعدت على وضع تلك التفاسير وعلى منطق ارسطو كأساس لضبط العقل عن الخطأ . وعقب ذلك انتشار الدين الاسلامي فانتصرت معاهده على تدريس المبادىء التي وضعها الفقهاء في التفسير والحديث والأصول وبقية فروع العلم الثانوية التي كانت تتخذ اساساً للوصول الى التوسع في تلك الاسس العلمية ، كما عرفت في ذلك العهد ، وكما تعرف الآن في كثير من معاهد العلم الاسلامي

اما فكرة « الجامعة » باعتبارها معهداً حرًّا قائماً على فكرة حرة ، فبدأت تتكوَّن في اوائل القرن السابع عشر ، عند ما بدأ كوبرنيكوس وغاليليو يبثان مذهبهما العلمي في نظام الكون ، وعندما بدأ جيوردانو برونو يبشر بحرية الفكر

غير ان تحرير الفكر تحريراً حقيقيًّا لم يبدأ الا بعد ان تحدَّد الأسلوب العلمي الحديث في اواسط القرن التاسع عشر ، وبعد ان ظلَّ العراك بين الأوضاع والتقاليد القديمة وبين الفكرة الحديثة ، سجالاً اكثر من قرن ونصف قرن من الزمان . وهذا التمهيد التاريخي ضروري لمن يريد ان يستوعب هذا البحث استيعاباً يمكِّنه به على تفهم حقيقة الفكرة من « الجامعة » ، وقد بدأنا نتخذها اساساً لتقدمنا العلمي

ان كثرة الجامعات والتوسع في اختصاصاتها من الاحداث الظاهرة في الحياة الاجتماعية في هذا العصر . ولقد اشتركت كل الاقطار في نتيجة هذه الحركة ، وعلى الأخص اميركا التي تمتاز على غيرها من هذه الناحية امتيازاً يوليها الشرف . على ان غاء الجامعات العلمية في عدد الكليات والمعاهد التابعة لها وفي اتساع أحجامها وتخالط نظاماتها الداخلية ينطوي على خطر قد يمكن ان يقضي على موارد النفع التي تنتظر منها اذا لم نفهم تمام الفهم حقيقة الوظائف الاولية التي يجب ان تؤديها الجامعات في خدمة الامة

ولا يجب علينا ان نبالغ في جدَّة هذه المدارس العلمية . فانه لم يمرَّ عهد من الزمان اقتصرت فيه الجامعات على درس المجرَّدات الصرفة . فان جامعة « سالرنو » في ايطاليا مثلاً ، وهي اقدم الجامعات الاوربية ، قد وجهت غالب همها الى درس الطب . كذلك نجد في انجلترا ان جامعة كمبردج قد انشأت كلية سنة ١٣١٦ لغرض خاص ، هو تخريج « كتبة يمينون في خدمة الملك » . وقد خرَّجت الجامعات رجالاً درسوا اللاهوت والطب والحاماة والهندسة . والحاجات العملية في هذا العصر من المهن التي تحتاج الى مقدرة عقلية فائقة ، ولهذا نقدر انها تستحق ان تشغل مكاناً في هذا السباق العملي . اما جدَّة هذه الفكرة فتنحصر في ان البرنامج الذي يتسق وحاجات معهد عملي ، واساليب العمل المختلفة فيه ، لا تزال في طور التجربة . من هنا اضطر الى الكلام تمهيداً لا تخصيصاً ، في المبادىء التي يجب ان تقوم عليها هذه المعاهد

تتكوَّن الجامعات من معاهد للدرس ، ومعاهد للبحث . اما السبب الاولي الذي يبرر وجود الجامعات فاننا نجده في نقل المعرفة من رأس الاستاذ الى رؤوس الطلبة ، ولا في الفرص التي تهيَّأ لاعضاء الكليات المختلفة لكي يبحثوا وينقبوا عن الحقائق . ان هذين من الممكن تحقيقهما في معاهد اقلَّ من الجامعات نفقة . فالكتب رخيصة الاثمان ، وطريقة « التلمذة »

والدرس معروفة . ومنذ اخترعت الطباعة في القرن الخامس عشر ، لم يبق للجامعات ما يسوّغ وجودها ، اذا اقتصرت وظيفتها على مجرد التلقين واعطاء المعلومات . اما الدوافع التي حفزت الامم الى تكوين جامعاتها فقد وجدت بعد ذلك التاريخ ، وقد ازدادت في العصر الحديث قوة

اما المبرر الذي تقوم عليه « الجامعة » فينحصر في أنها تحتفظ بالصلة القائمة بين المعرفة وبين ما يتذوق الناس من طعم الحياة ، اذ توجد بين الصغار الذين يتعلمون والكبار الذين يعلمون باعتبار تصوري في الدرس والبحث . ان الجامعات تدلي بمعلومات المتعلمين بين جدرانها ، ولكنها تدلي بها بطريق يذكي التصوُّر . وفي هذا تنحصر وظيفتها التي يجب ان تقوم بها الجماعة . اما جو القلق والاضطراب الذي يخلقهُ ذلك الاعتبار التصوري ، فهو الذي يكيف المعرفة . هنالك لا تصح أية حقيقة ما ، مجرد حقيقة عارية عن المعنى . انها تكون حقيقة تلابسها كل تمكناتها واحتمالاتها . انها لا تضحي عبئاً ثقيلاً على الذاكرة ، بل تصبح مبدأ باعثاً على القوة والنشاط مثيراً للخيال . تصبح الشاعر الذي يعبر عن احلامنا ، والمهندس الذي يرتب اغراضنا ويرسم غاياتنا . كذلك لا تفرق بين التصور وبين الحقيقة . لان التصور يكون طريقاً لتبيان الحقيقة . إنهُ يستخرج المبادىء العامة التي تنطبق على الحقائق كما هي موجودة ، ثم يلجأ الى استعراض عقلي لكل الاحتمالات المتنوعة التي تسايرتلك المبادىء

وهذا مما يساعد الباحثين على ان يكوّنوا تصوراً عقليًّا في دنيا جديدة عليهم ، فضلاً عن انهُ يحفظ لهم ما يتذوقون من طعم الحياة ، وما يرضون به من الوانها الكثيرة ، مما يحفزهم اليه من العمل على سد اغراضهم واشباع مطامعهم

ان الشباب قوة متصورة . فاذا قوي التصور بالتزام النظام ، امكن في الغالب الاحتفاظ بنشاط التصور مدى الحياة . اما مأساة الحياة الكبرى ، فتنحصر في ان الذين هم اقوياء التصور يكونون قليلي الخبرة ، والذين هم كاملو الخبرة ، يكونون ضعاف التصور . ان الحمقى انما يعتمدون على التصور دون المعرفة . اما الادعياء فيعتمدون على المعرفة دون التصور . لهذا تنحصر وظيفة « الجامعة » في أن تراقب الصدع القائم بين التصور والخبرة

***

اما النتيجة التي تنتظر من هذا فهي ان يتزوّد الشباب منذ فتوتهم بالخبرة العملية التي يحرزها الشيوخ في شيخوختهم . وبهذا تكون الوظيفة التي تقوم من أجلها الجامعات محصورة في الحصول على معرفة قائمة على التصور . فاذا لم تقم الجامعة على اساس « التصور » فهي اذن لا شيء ، او على الاقل تكون معدومة النفع والفائدة

« التصور » مرض معدٍ في حين انهُ لا يمكن ان يقاس بالبوصة والقدم ، ولا يمكن

ان يوزن بميزان اداتهُ الرطل او الاقة ،حتى يستطيع ان يجرعهُ اساتذة الكليات لطلبة العلم جرعات سائغة او يفرضونهُ عليهم حقناً تحت الجلد . انهُ ليس شيئاً من هذا . انهُ صفة لا يمكن ان تنقل الى طلبة كلية نشأ اساتذتها بعيدين عن فكرة تشرب العلم من طريق التصور. واني ان قلت بهذا ، فانما اكرر القول بمشاهدة من اقدم المشاهدات . فمن الي سنة مثل الافدمون للعلم بمشعل مضيء ينتقل من يد الى اخرى خلال الاجيال . وما هذا المشعل المضيء الا « التصور » الذي اتكلم فيه الآن . إني لاعتقد ان كل ما في النظام الجامعي من فن ينحصر بإشادة معاهد يضيئها نور التصور . وهذا لدى الحقيقة مشكلة المشاكل في التعليم الجامعي. فاذا لم نفن بدرس هذه المشكلة ، واذا لم نقم التعليم في الجامعات على هذا الاساس، فان الجامعات على كثرتها في هذا الزمان ، ستخفق حتماً في الوصول الى التاج التي تنتظرها منها

إن اتحاد التصور والدرس يحتاج الى بعض السطرية والتحرر من القيود ومن متاعب الحياة، مع قليل من الخبرة المتنوعة ، ومعاونة عقول اخرى مشبعة الفكرات كثيرة المعارف. كذلك هو يحتاج الى استواء التطلع والاعتماد على النفس القائم على الفخر والزهو بما احرزت الجمعية القائمة من تقدم في فروع المعرفة . كما ان التصور لا يمكن ان يحاز دفعة واحدة اولاً وآخراً ثم يحتفظ به في صندوق من الثلج يستولدهُ كلما دعت الحاجة . فان حياة قائمة على الدرس وعلى التصور ، هي طريقة تعرف منها كيف تعيش ، وليست سلعة من السلع التجارية تباع ثم تشرى ، وتشرى ثم تباع

من الانتفاع بهذه الحالات ومن الاحتفاظ بها في كلية من الكليات التي امتكنت كل المعدات الضرورية للتعليم ، تستخلص الوظيفة الحقيقة التي تنشأ من اجلها جامعة من الجامعات، واني بها المعاونة على الدرس من ناحية والبحث من ناحية اخرى . فانك اذا اردت ان يكون اساتذتك اقوياء التصور ، اذن شجعهم على البحث ، وساعدهم على ان يكونوا احساس العطف العقلي على الصغار الذين يعلمونهم ، في ذلك العهد الذي يكون التصور فيه اشد ما يكون يقظة وانتباهاً ،عصر الشباب والفتوة ،عند ما تكون قوى العقل قد اخذت تتلفت الى نظام الاكتمال والنضج . دع الباحثين يعبرون عن آرائهم لعقول نشيطة مرنة مندمجة في الدنيا الخافقة بهم ، واترك نشأة في عهد التحصيل العقلي يتوج جهده بالاتصال بعقول ملأتها الخبرة العقلية . ذلك لان التعليم في الواقع ليس الا نظاماً يواجه به الانسان خطورة الحياة ، كما ان البحث مخاطرة عقلية ، لهذا وجب ان تكون الجامعات بيوتاً للمخاطرة والاقدام تعاوناً بين الشيب والشباب